

عن القسوة والرحمة

الأفضل أن تكون محبوباً على أن تكون مرهوب الجانب أو العكس

سنتابع في هذا الفصل مع الصفات الأخرى التي تكلمنا عنها سابقاً.. لقد قلْتُ بأن كل أمير يرغب بأن يُعتبر طيباً وشفوقاً وليس قاسياً شرساً، لكن عليه أن ينتبه كي لا يستخدم هذه الشفقة بشكل سيء. مثلاً "سيزار بورجيا" كان قاسياً، إلا أن قسوته هذه قوّمت حالة "رومانيا" ووحّدت.. وحوّلتها إلى السلام والإخلاص. فإذا تأملنا هذا جيداً سنرى أنّه (أي سيزار بورجيا) كان شفوفاً أكثر بكثير من الشعب "الفلورنسي" الذي أراد تجنّب لقب القاسي.. فأدّى ذلك إلى قيامه بأعمال أوصّلت "بيستوا" إلى الدمار. بالنتيجة.. يجب على الأمير ألاّ يستاء من لقب (القاسي) إذا كانت قسوته بهدف جعل شعبه موحداً مخلصاً.. لأنه بأمتلئة قليلة جداً سيصبح طيباً شفوفاً أكثر من أولئك الذين يتركون الفوضى والمشاكل تنشأ بسبب شفقتهم المبالغ فيها.. فهذا سيؤدّ سرقة ونهب وستقع الجرائم والاغتيالات.. وهكذا سيكون هذا الأمير الطيب قد أهان كل مواطنيه بشكل طبيعي.. بينما تبقى الإجراءات التي يتخذها الأمير ذو اللقب "القاسي" موجّهة إلى مجموعة محددة من المواطنين.

ومن المستحيل على أمير جديد دوماً عن كل الأمراء أن يتجنّب لقب القاسي لأن الدول الجديدة تكون مليئة بالمخاطر. وفي ذلك قال "فيرجيل" على لسان "ديدون":

«ثر غمني الظروف الصعبة والحادثة في الحكم على اتخاذ تلك الإجراءات وعلى حماية حدودي بشكل ظاهر جداً». ولكن على الأمير الجديد أن يُحافظ على معتقداته وتصرفاته وألاّ يصنع الخوف بذاته وأن يعتدل بالحكمة والإنسانية ويتصرّف بحيث لا تجعله الثقة المفرطة متهوراً ولا الحذر المبالغ فيه غير مُحتمل.

ومن هنا نشأ الخلاف حول ما إذا كان من الأفضل أن يكون محبوباً أم مرهوب الجانب.. وعلى هذا التساؤل أجيب بأنّه عليه أن يكون الاثنان معاً.. لكن بما أنّه من المستحيل أن يوافق بينهما الاثنان معاً.. فمن الأفضل أن يكون

مخشياً مرهوب الجانب.. على أن يكون محبوباً.. لأن الناس بشكل عام جاحدون ومتقلبون، ومتصنعون، ومنافقون.. يفرّون أمام المخاطر، ويطمحون بالربح طالما أنك تحسن إليهم.. إنهم لك بكلّيتهم.. يقدمون الدم والعطاءات والروح والأولاد فداءً لك وكل هذا، كما قلت سابقاً، عندما لا تكون بحاجتهم... ولكن ما إن تحتاجهم حتّى يبتعدون عنك.. وستسير أيّها الأمير الذي اتكلت كلياً على كلامهم ووعدهم نحو دمارك.. وستجد نفسك عندما تحتاجهم عارياً محلولاً من كل ارتباط أو عهد... لأن الصداقات التي تُكتسب مقابل الأجر.. وليس بالعظمى ونبل التفكير، يُمكن شراؤها لكن لا يمكن امتلاكها... ولا يمكنك في وقت الاستحقاق أن تصرفها. إنّ الناس يؤذون الشخص المحبوب أكثر مما يؤذون الشخص المخشي.. لأن الحب مأخوذ برباط الإجبار الذي يُكسر ما إن تأتي فرصة للمنفعة الخاصة... لأنهم (أي الناس) سيئون.. لكن الرهبة والخوف يؤخذان بالتوجّس من العقاب الذي يلزم الأمير دائماً.

إذاً.. على الأمير أن يسعى ليكون مرهوباً ولكن دون كره إن لم يستطع أن يكون محبوباً.. فمن السهل أن تكون مرهوباً دون أن تكون مكروهاً.. وهذا ما ستصل إليه إذا امتنعت عن الإحسان لمواطنيك ورعيّتك ونسائهم، ومع ذلك عندما ستضطر إلى التصدّي لعائلة أحدهم، عليك أن تقوم بذلك عندما تمتلك التبرير المناسب والسبب الواضح.. ولكن انتبه فلا تقرب مالهم وثرواتهم.. لأن الرجال ينسون موت والدهم أسرع مما ينسون إرثه المفقود. ثم إنّ الأسباب والدوافع لنهب الأموال والثروات موجودة دائماً... ومن يبدأ بالعيش على النهب سيجد دائماً سبباً لذلك وبالتالي سيزول ملكه بسرعة كبيرة.

وهكذا نجد بأنّه من الضروري للأمير الذي يقود الجيوش ويحكم عدد كبير من الجنود.. ألاّ ينزعج من لقب (القاسي) لأنّه من دون هذا اللقب لن يكون لديه جيش موحد ولن يستطيع قيادة فرقة أو حزب ما. وسنأخذ مثال على هذا واحد من التصرفات الرائعة لـ "هاني بعل" عندما كان يملك جيشاً ضخماً جداً فيه خليط من شعوب لا متناهية.. حينها قام بقيادته ليحارب في أرض غريبة... ولم يبدي "هاني بعل" أيّ تسامح... لا فيما بين الجنود ولا في مواجهة الأمير.. لا في السراء ولا في الضراء... وهذا ما لا يمكن أن يتولّد إلّا عن قسوته كلمة واحدة. فبالإضافة إلى ميّزاته التي لا حصر لها.. جعلته هذه القسوة محترماً مرهوباً دائماً في نظر جنوده... ومن دون هذه

القسوة لن تكون مميزات الأخرى كافيةً أبداً لترك هذا الأثر العظيم وقد أدان بعض الكُتّاب تصرفاته.. ولكنهم من جهة أخرى كانوا معجبين بهذه التصرفات.

في الواقع إن هذه الفضائل غير كافية ويمكننا أن نبحث في ذلك مع شخصية "سيبيون" وهو شخص نادر الوجود، ليس فقط في عصره وإنما في تاريخ الرجال. لقد تمرّدت الجيوش في "إسبانيا" وهذا الأمر لم ينتج عن شيء سوى عن شفقتة المفرطة... التي أعطاهما لجنوده... مانحاً إياهم حرية لا تتناسب مع التربية الحربية. وهذا ما جعل "فابوس ماكيس" من مجلس الشيوخ يلومه ويدعوه "بمُفسد الميليشيا الروماني". لقد دمّرت مدينة "لوكرس" مع أحد مساعديه لكنها لم تنتقم.. ولم يُقم أي سيبيون بمعاقبة هذا المساعد على وقاحته.. كل هذا كان بسبب طبيعة هذا القائد السهلة. حتّى أن شخصاً ما أراد التماس العذر له أمام مجلس الشيوخ فقال أن "سيبيون" كان واحداً من الرجال الكثيرين الذين لا يعرفون ارتكاب الخطأ بقدر ما يعرفون تصحيحه. وقد دُتست هذه الطبيعة مع الوقت سمعة ومجد "سيبيون" ولكنه كان مستمراً في السلطة مع هذه الطبيعة اللينة جداً.

إلا أن وجوده تحت إمرة مجلس الشيوخ أخفى هذه الصفة الضارة... ولم يكفي بذلك... بل إن وجوده هذا قد ساهم في منحه المجد...

اختتم بالقول.. فيما يتعلّق بالكون محبوباً أو مرهوباً.. فعلى الأمير العاقل الحكيم أن يركّز على ما لديه وليس على ما لدى غيره.. لأن الناس يحبون الأمير على هواهم ويهابونه على هواهم... وهكذا لا يبقى أمام الأمير سوى الابتعاد عن أن يكون مكروهاً أو محقوداً عليه.

كيف يجب على الأمراء أن يلتزموا بعهودهم.

من الصفات المحمود وجودها عند الأمير هي الحفاظ على العهد والعيش بنزاهة بعيداً عن المكر والخداع والاحتيال... بهذه الطريقة سيفهمه كل شخص بوضوح...

وإذا نظرنا إلى أمراء عصرنا سنجد أنهم يقومون بأعمال عظيمة دون التقيد بوعودهم كثيراً، لأنهم يعرفون كيف يحتالون على عقول الناس.. وفي النهاية ينتصرون على مَنْ يعتمدون على الصدق والإخلاص.

إذا... هناك نوعان من المعارك.. واحدة مع القانون والأخرى مع القوة. المعركة الأولى خاصة بالإنسان.. والثانية خاصة بالحيوان. لكن بما أنَّ الأولى قد أثبتت عدم كفايتها مراراً فقد أصبح من الأفضل اللجوء للآخرى... ومن الضروري للأمير أن يعرف جيداً كيف يستخدم النوع الخاص بالحيوان والآخر الخاص بالإنسان. وقد لقّن هذا الجزء للأمراء بكلام مبطن من قبل الكتّاب القدماء الذين كتبوا أنَّ "أخيل" وعدد آخر من الأمراء القدامى الذين كانوا من مدرسته أو في لهم من "شIRON" الذي خلق شخصية "السنثور"^(١) وبذلك يكون معلم "أخيل" كائن نصفه حيوان ونصفه إنسان وهذا ليس له أي معنى آخر.. إلاَّ أنه على الأمير أن يعرف كيف يستخدم الطبيعة الأولى والثانية مع العلم بأن الواحدة منهما لا تدوم دون الأخرى.

ولمعرفة الاستخدام الجيد للحيوان.. على الأمير أن يأخذ مثلاً له الثعلب والأسد، فالأسد لا يستطيع تحنُّب الفخاخ.. والثعلب لا يمكنه مقاومة الذئب.. وهكذا عليه أن يكون ثعلباً ليتعرّف على الفخ وأسداً ليُرعب الذئب^(٢). أمّا من ضلّ يتمسك بما يأخذه من صلب الأسد ببساطة فلن يستفيد شيئاً من ذلك.

(١) - وحش أسطوري ابن إله "كمرنوس" الذي علّم "أخيل" و"اسكليبيوس" و"جازون" وهو كائن نصفه إنسان ونصفه فرس.

(٢) - استوحى "ميكافيلي" من كتاب "سيسرون"، "الواجبات" ١ - ٤١: "يمكن أن نكون غير عادلين بطريقتين إمّا العنف أو الحيلة.. الحيلة عمل الثعلب والعنف عمل الأسد، والأولى والثانية هما الشيطان الأكثر غرابة في الإنسان، ولكن الاحتيال هو الشيء المكروه بشكل أكبر بينهما".

بالنتيجة.. لا يستطيع كما لا يجب على السيد الحكيم أن يلتزم بوعده عندما سيتحوّل ذلك الالتزام ضدّه أو عندما تنتفي الأسباب التي جعلته يعدّ. ولو أنّ الناس جميعاً طيبون وجيدون لكان هذا المبدأ خاطئاً.. ولكنهم سيئون ولا يلتزمون بوعودهم اتجاهك... فلا تلتزم أنت بدورك اتجاههم. فدائماً ستجد، أنت الأمير، أسباب شرعيّة لا حصر لها تساعدك في زخرفة مخالفتك للوعد.

وعن هذه الناحية يمكننا أن نُعطي أمثلة حديثة كثيرة جداً.. وأن نُظهر كم من المعاهدات والوعود أصبحت باطلة ودون جدوى بسبب عدم إخلاص الأمراء.

إنّ الذي يعرف استخدام طريقة الثعلب ينجح بشكل أفضل... ولكن من الضروري أن يعرف جيداً كيف يزيّن هذه الطريقة وكيف يكون مُتظاهراً أو بلاصّح جيداً مُناقفاً كبيراً، فالرجال بُسطاء جداً، ويطيعون الضرورات الراهنة... بحيث أنّ ذلك الذي يخدع سيجد دائماً شخصاً ما يترك نفسه ضحيّة لخدعته.

ولا أريد أن أغفل هنا مثلاً حديثاً.. " ألكسندر السادس " لم يقيم بشيء آخر.. ولم يفكر بشيء آخر سوى خداع الرجال، وكان يجد دائماً موضوعاً يُساعده على القيام بالخدعة. وليس هناك رجل يسخر بفعالية أكثر.. ولا يؤكّد شيئاً بإيمان أعظم.. ثم لا يلتزم به مثله. ومع ذلك كانت خدعه تنجح دائماً كما كان يتمنّى، لأنّه كان يعرف جيداً هذه الناحية من العيش.

إذاً ليس من الضروري على الأمير أن يملك كل الصفات الآتية الذكر، لكن من الضروري له أن يتظاهر بامتلاكها.. حتّى أنني سأجراً على القول بأن هذه الصفات ضارة إذا ما امتلكها المرء والتزم بها دائماً... أمّا إذا تظاهر بامتلاكها فإنها ستبدو كأنها صفاته الحقيقيّة وسيظهر بمظهر الشفوق والوفي والكامل والمتديّن.

في الواقع.. إن امتلاك الإنسان لكل هذه الصفات شيء جيد.. لكن بشرط أن يعرف كيف يملك عكسها عندما يتطلب الأمر ذلك أو عندما لا يحتاج الوضع لأن تكون فيه هذه الصفات الحسنة.. وهذا ما يحتاج إلى عقلٍ مدرب.

وعلى الأمير، وخاصة الأمير الجديد ألاّ يتقيّد بكل الأشياء التي يدعوها الرجال بالأمور الجيدة للأمير. ما دامت ضرورة حفظ دولته تدعوه إلى

القيام بما يخالف عهده وما يعاكس الإحسان والإنسانية والدين.. لهذا عليه أن يكون ذو عقل مستعد للالتفات بحسب رياح القدر وتغييرات الأشياء. وكما قلت سابقاً، لا تترك الخير أيها الأمير عندما يمكنك ذلك، لكن عليك أن تعرف كيف تدخل الشر عندما تحتاج إلى وجوده.. أي عندما يكون ضرورياً.. واحذر أن يخرج من فمك شيء لا يظهره بمظهر من يملك تلك الصفات الخمس الأنفة الذكر.. من شفقة وإخلاص وكمال وإنسانية وتدين.. فليس هناك ما هو أهم من الظهور بامتلاك هذه الصفات.. لأن الناس بشكل عام يحكمون بعيونهم أكثر مما يحكمون بأيديهم.. فالرؤية ممكنة للجميع لكن قليلون هم الذين يحسّون.. الكل يرى ما تُبديه وقلائل فقط هم الذين يُدركون ما أنت عليه ودائماً لا يتجاسر هؤلاء القلة على معارضة رأي الأكثرية الذين يملكون عظمة الدولة التي بدورها تدافع عنهم.

وفي أفعال الرجال وخاصة الأمراء ليس هناك محكمة "لهذه الأفعال" بجانب من يصرّح لكن ننظر إلى نهاية هذه التصريحات هل هي أفعال أم ماذا؟.

إذاً حين يعمل الأمير للحفاظ على الدولة ولنصرها.. يُحكم على وسائله مهما تكن مائها شريفة ومحمودة.. ويثني عليها كل شخص. لأن السوق لا يؤخذ إلا بما يُظهره وما ينتج عنه.. وليس هناك في العالم إلا السوقيين.. لذلك لا مكان لغير السوق في هذا العالم فالعدد القليل ليس له مكان عندما يستند عليه العدد الكبير.

ومن هنا أقول أن بعض الأمراء في عصرنا.. ولا أفضل تسميتهم^(١).. لا يعطون بشيء غير السلام والإخلاص.. وفي الحقيقة هم أعداء لدودين لهذا السلام والإخلاص. فلو أنهم قد التزموا بهذين الأمرين.. لانتزعت دولهم وسمعتهم منهم على الفور.

كيف يجب تجنب الاحتقار والحقده.

بما أنني قد تحدثت فيما سبق عن الصفات الأكثر أهمية. أود الآن أن أناقش باختصار صفات أخرى تحت هذه العموميات:

إن الأمير وكما قلت سابقاً يتجنب الأمور التي تجعل منه مكروهاً ومحتقراً.. وفي كل المرات التي يتجنب بها ذلك.. يقوم بعمله على أتم وجه دون أن يواجه أي خطر على سمعته.

الجشع واغتصاب أملاك ونساء الرعية أمور تجعله مكروهاً كما قلت سابقاً لذلك عليه تجنبها... فطالما أنك، أيها الأمير، لم تمس شرف الرجال أو ممتلكاتهم، فإنهم سيقفون مسرورين راضيين.. ولن تواجه حينها إلا بعض الطامعين الذين يمكن كبحهم بسهولة وبعده وسائل.

أما الصفات التي تجعلك مُحْتَقَرًا والتي يجب عليك تجنبها.. فهي عدم الوعي، وخلو البال والتخنيث، والتهرب من المسؤوليات، والتردد.. فإنها تشكّل حجر عثرة في طريقك ومن هنا - فإنه عليك أن تبذل جهدك فيما تُظهره من عظمة وشجاعة وجدية وقوة في تصرفاتك.. وأن تسعى ليكون حكمك بات لا رجعة عنه بالنسبة للأعمال السيئة الخاصة بالرعية.. وعليك أن تثبت على رأيك فلا يعود من يجرو على التفكير بخداك أو غشك.

أمير كهذا سيكون مشهوراً جداً... وضد المشهورين يكون التآمر والقتال صعباً لأننا نعلم أنهم متميزون ومحترمون ومحترمين من أتباعهم.

فعلى الأمير أن يخشى أمريني: الأول في الداخل ويتعلق بالرعية.. والآخر في الخارج ويتعلق بالطغاة الخارجيين ومن هؤلاء يحمي نفسه بالجيش الجيد والأصدقاء الجيدين.. وإن كان له جيش وسلاح جيد سيكون له أصدقاء جيدون.

وطالما أن الأمور مستقرة في الخارج فهي مستقرة في الداخل.. إلا إذا شوشتها دسيئة ما، وعندما تبدأ الأمور الخارجية بالتحرك فإنه سيصمد دائماً في وجه كل الهجمات (إذا عاش ونظم أموره، كما قلت، ولم يستسلم) وهذا ينطبق على مثال "نابيس" في (إسبارطة) الذي أوردته سابقاً.

أما فيما يخصّ الرّعيّة.. وعندها بإمكانه أن يطمئن بابتعاده عن الكره والاحتقار بشكل كافٍ، ويتحقق ذلك عندما يجعل الشعب راضياً عنه.. وهذا ما يجب على الأمير أن يسعى إليه مطوّلاً، ومن أكثر العلاجات فعالية ضدّ الدسائس هي ألا يكون الأمير مكروهاً من كل الشعب، لأنّ مَنْ يُحيك المكائد يعتقد دائماً أنّه يرضي الشعب بموت الأمير... لكن إذا آمن بأنّه سيزعجه بذلك وسيسبب له الضرر، فإنّه لن يتجرّأ على القيام بمثل هذا العمل... لأنّ الصعاب التي تولّدها المكائد لا متناهية... ومن خلال الخبرة نجد أنّ هناك الكثير من الدسائسين ولكن القليلون منهم يستطيعون الوصول إلى نهاية سعيدة. فهذا الذي يحيك المؤامرة لا يمكنه البقاء وحيداً... ولا يمكنه أن يتخذ رفاقاً له سوى من أولئك الذين يُبدون استيائهم. فإذا كشفت أيها الأمير عن تفكيرك لأحد المتضررين فإنّك ستمنح بذلك مادةً ليصبح راضياً بها... لأنه بهذا الإفصاح سيرى كل الأمل والرفاهية، سيرى أنّك تُعطيه الربح السريع، بينما تعطيه الدسائس والدسائسون ربح غير مؤكّد وملئ بالمخاطر... ومن الأفضل له أن يكون صديقاً نادراً للأمير على أن يكون عدواً لدوداً له.

ولإيجاز الموضوع بالقليل من الكلمات أقول أنّه: في ناحية المكيدة ليس هناك سوى الخوف والحسد والتوجس من العقوبة التي تُرعبه.. بينما في ناحية الأمير هناك عظمة الإمارة، والقوانين وحماية الأصدقاء والدولة التي يدافعون عنها. فتُضاف المحبة الشعبيّة إلى كل هذه الأشياء ليصبح من المستحيل على أي شخص مهما كان متهوراً... أن يتأمّر، لأنّه من الدارج أن يختبر الدسائس الخوف قبل تنفيذ الشر. وهناك عليه أن يخاف لأنّ الشعب أيضاً أصبح عدواً له... في هذه الحالة لن يجد أي مخرج له بعد إتمام الجريمة.

وعن هذا الموضوع بإمكاننا أن نُعطي أمثلة لا حصر لها.. لكنني سأكتفي بواحد منها: السيّد "هانيبال بو نتيفو جليو" جدّ السيّد "هانيبال" الحالي، كان أميراً على "بولونيا" وقد قُتل من الـ "كانسشي" الذين تأمروا ضده... لذلك قتل الشعب كل الـ "كانسشي" بعد هذه الجريمة مباشرة. وفي حينها لم يكن هناك وريث غير "جيوفاني" الذي كان طفلاً في القماط. وبما أنّ مودة الشعب كانت عظيمة... ولم يكن وقتها قد بقي من هذه الأسرة مَنْ يمكنه أن يحكم بعد وفاة "هانيبال"، فقد ذهب من البولونيين مجموعة إلى "فلورنسا" سعياً وراء مولود متحدّر من هذه الأسرة، أي أسرة "بو نتيفو

جُليو"، وهو مجرد ابن حداد عادي وقد عمّت شائعة بوجوده في "فلورنسا". ثم مُنح حكم الأمة إلى أن وصل السيد "جيوفاني" إلى العمر المناسب للحكم. إذاً، عندما يكون شعبك مُحباً رؤوفاً ليس عليك إلا أن تقوم، في حالة المكائد، بالقليل... لكن إن كان شعبك عدوك ويكرهك، فعليك أن تخشى كل الأمور والأشخاص. إنّ الدول المنظّمة جيداً والأمراء العقلاء يفكرون بكل اهتمام في ألا يجعلوا السادة يائسين، وفي أن يُرضوا الشعب ويجعلوه مسروراً، لأنّ هذه من أهم الوسائل المساعدة للأمير.

من بين الممالك الجيدة التنظيم والحكم في عصرنا، مملكة "فرنسا" وفيها نجد إنشاءات جيدة لا متناهية، تتعلّق بحريّة وأمن الملك. وأولى هذه الإنشاءات هو البرلمان (المحكمة العليا) وسلطته، فهو من يُنظّم المملكة... ويعرف طموح السادة وسلطانهم لذلك فقد وجد أنّه من الأفضل أن يلجم أفواههم... كما كان على علم بكره الشعب للسادة القائم على الخوف... لذلك أراد طمأنّتهم... ولم يرد أن يكون هذا هو الهمّ الخاص للملك لكي يُجنّبه المسؤولية اتجاه السادة إذا قام (الملك) بإنصاف الشعب... واتجاه الشعب إن هو أنصف السادة. لذلك أقام هذا البرلمان لإيجاد حكمٍ مُحايدٍ^(١) يقف في وجه السادة ويُنصف الصغار دون أن يكون هناك مسؤولية على الملك. وفي الحقيقة... لم يسبق هذا أمرٌ أفضل أو أكثر حكمة، ولا وسيلة أعظم للحفاظ على أمن الملك والمملكة.

ومن هنا... يُمكننا أن نستخلص شيء مهم آخر: على الأمراء أن يُديروا بالأعمال المُنفّرة من خلال الآخرين وليس بأنفسهم، وأن يحتفظوا لأنفسهم بالإعمال الممتعة التي تجعل الشعب يُحبهم. فعلى الأمير أن يحترم السادة لكن دون أن يولّد الكره في قلب الشعب ضده.

وسيبدو للكثيرين أن لديهم أمثلة معاكسة لرأيي هذا إذا ما تأملوا حياة وموت بعض أباطرة الرومان... لأنهم من خلال هذا التأمل سيجدون شخص ما عاش بتميّز دائم وأظهر فضيلة كبيرة في العقل.. ومع ذلك فقد سلّطته أو قُتل من قِبَل أتباعه الذين تأمروا ضده. وللرد على هذه الاعتراضات سأناقش صفات بعض الأباطرة وسأظهر أسباب دمارهم مثبتاً عدم اختلافها عن تلك المُحددة من قِبَلي... كما سأبرزُ بالمناسبة تلك الأمور

(١) - يتحدث هنا عن برلمان أقيم من قِبَل "فيليب لوبيل" عام ١٣٠٤ وكانت مهمته أن يقيم العدل دون أن يكون له علاقة بالملك أو بالسادة الإقطاعيين.

المميزة لمن يقرأ أحداث هذا العصر. ولأحقق كل ما سبق فإنني سأخذ كل الأباطرة الذين تتالوا على السلطة من "مارك"، "كومود" ابن مارك "بيرثيناكس"، "جوليان"، "سيفير"، "انتوينين كاراكالا" - ابن سيفير -، "ماكرين"، "هيليوس جا بال"، "ألكسندر" و"ماكسيمين".

بدايةً علينا أن نلاحظ كيف أن القتال ضد طموح السادة ووقاحة الشعب كان يكفي في الإمارات الأخرى.. لكن هذين الأمرين يضاف لهما صعوبة ثالثة لدى الأباطرة الرومان وهي المعاناة من قسوة وجشع الجنود، وهذا أمرٌ صعب وكان سبباً في دمار الكثير. لأن إرضاء الشعب والجنود معاً أمرٌ صعب التحقيق فالشعب يحب الهدوء والسلام وبالتالي يجد أن الأمير المتواضع مريحٌ ومثالي له. بينما يميل الجنود إلى الأمير ذو العقل العسكري... إنه أميرٌ قاسي وفظٌ وطماع.. والجنود يريدون من الأمير أن يُمارس صفاته هذه على الشعب لكي يتمكنوا - أي الجنود - من أخذ أجورٍ مضاعفة وهكذا يُشبعون قسوتهم وجشعهم.

ومن خلال هذه الأشياء نرى أن هؤلاء الأباطرة الذين ليس لديهم سُمعة وشهرة عظيمة سواءً أكانت متوارثة أو مُقتحلة ومُستحدثة، بإمكانهم أن يكبحوا بها الشعب والجنود، وكانهم بهذه الطريقة يسيرون إلى دمارهم.. فالكثيرون من بينهم وخاصة أولئك الذين وصلوا إلى الإمارة بجهودهم وليس عن طريق الوراثة.. يكرّسون جهودهم لإرضاء الجنود وليس الشعب، عندما يدركون صعوبة هذين الطبعين المتناقضين، دون أن يولوا للشعب إلا جزء يسير جداً من اهتمامهم. فمن وجهة نظرهم الجيش هو الجزء الأهم. فإن كان لا بد من وجود أناس يكرهون الأمير، فعليه أن يسعى لكي لا يكون هؤلاء الكارهون هم الجماعات والأحزاب، فإن لم يتمكن من ذلك عليه أن يفرّ بمهارة من كرههم وأن يحفظ نفسه منهم لأنهم الأكثر قوّة. والأمير بحاجتهم خاصةً إن كان حديث العهد. ومن هنا نرى هؤلاء الأباطرة بحاجة إلى مُساندة خارقة، بسبب حداثتهم، لذلك يفضلون الارتباط بالجنود أكثر من الشعب.

وقد كان هذا الارتباط مفيداً في بعض الأحيان... وفي أحيان أخرى لم يكن.. ويتحدد ذلك بحسب معرفة الأمير أو عدم معرفته لكيفية الحفاظ على سمعته ومجده إزاء جنوده. وللأسباب الأنفة الذكر كانت النهاية تعيسة لكل من "بيرثيناكس" و"ألكسندر" باستثناء "مارك" بالرغم من أنهم جميعاً قد جاؤوا من حياة فقيرة متواضعة وهم بطبعهم مُحبين للعدل والإنسانية

والرأفة وأعداء للقسوة. لكن "مارك" ^(١) وحده عاش ومات مُكرِّماً لأنه وحده من بين هؤلاء الثلاثة مَنْ وصل إلى السلطة عن طريق الحق الموروث وليس عن طريق الجنود أو الشعب فلم يكن لأحدٍ فضلٌ عليه.. إضافةً إلى أنه يتحلّى بصفات جعلت منه رجلاً جديراً بالاحترام... لقد احتفظ هذا الإمبراطور طوال حياته بكلٍّ من الفريقين في مكانه المحدد دون أن يثير اتجاهه الحقد أو الاحتقار.

أمّا "بيرتيناكس" ^(٢) فقد أصبح إمبراطوراً بعكس إرادة الجنود. الذين كانوا مُتعادين على العيش بحريّة في زمن "كومود" فلم يستطيعوا احتمال الحياة الشريفة التي أراد "بيرتيناكس" أن يسحبهم إليها وهكذا أصبح الجيش يكرهه إضافةً إلى كونه مُحتقراً لكبر سنّه.. ومنذ أن استلم السلطة كان يسير إلى دماره.. وهنا تجدرُ الملاحظة إلى أنّ الكره قد ليكتسبُ بالأعمال الجيدة.. كما يُكتسبُ عادةً بالأعمال السيئة.. لذلك يجب على الأمير أن يجتهد بالألّا يكون جيداً إذا أراد الاحتفاظ بدولته كما قلنا سابقاً... لأنّه إذا كانت القوى والتنظيمات التي تحكمها فاسدةً سواءً أكانت جيش أم شعب أم سادة.. وأنت بحاجة لهم لكي تُحافظ على نفسك، فمن الأفضل لك آنذاك أن تتبع مزاجهم لترضيهم وبالتالي ستكون الأفعال الجيدة مضرّةً لك.

لنأتي الآن إلى "ألكسندر" ^(٣) الذي كان إمبراطوراً جيداً جداً حيث أنّه من بين كل الإطراءات والثناءات التي ارتبطت به كان له ميزة رائعة.. فخلال الأربعة عشر عاماً التي كان فيها في السلطة، لم يُقتل شخصٌ من قِبَلِه دون مُحكمة.. لكنّ الجيش تأمر ضده وقتله لأنه رآه مختئاً وتاركاً نفسه ينساق لإدارة والدته وهذا ما جعله مُحتقراً أيضاً.

أمّا بالنسبة لأصّفات وميّزات "كومود" و"سيفير" و"أنتونين كاراكلا" و"ماكسيمين" فإنهم جميعاً فُساءةٌ جداً وجشعون.. وقد قاموا بكل أنواع الجور والضرر التي يستطيعونه ضد الشعب لكي يُرضوا الجيش. وكانت نهاياتهم جميعاً تعيسة ما عدا "سيفير" لأنّه كان فاضلاً وصالحاً جداً لدرجة أنّه استطاع دائماً أن يحكم بسعادة مُحتفظاً بصداقة جنوده. وبالرغم من الأعباء التي كان يفرضها على الشعب، فقد جعلته هذه الفضائل موضع إعجاب من

(١) - "مارك أوريل" (١٢١ - ١٨٠): ابن مُتبني لـ "أنتوني" وهو مؤلف كتاب "الأفكار".

(٢) - "بيرتيناكس" (١٢٦ - ١٩٣): إمبراطور بعد اغتيال كومود، قتله حرس القصر.

(٣) - "ألكسندر سيفير" (٢٠٨ - ٢٣٥): إمبراطوراً بإرادة جيش القيصر الذي قتل ابن عمه "هيليو كابل"، أصرَّ على إعادة تشكيل الجيش لكنّه مات مُعتلاً.

الجنود والشعب الذي استمرَّ مُعجَباً وأحمقاً عن طريقة بعض الوسائل... بينما ظلَّ الجنود راضين يُظهرون الاحترام.

فقد كانت تصرفاته، بالنسبة لأمير جديد مثله، عظيمة وملحوظة.. وهنا أوْدُ أن أُبين باختصار كم عرف هذا الإمبراطور كيف يستخدم صفات الأسد والثعلب. فقد أشرت سابقاً إلى أهميّة تقليد هاتين الطبعيتين بالنسبة للأمير: عندما كان، أي "سيغير" ^(١)، قائداً في "سلافوني"... وبعد أن رأى تكاسل الإمبراطور "جوليان"، أقنع جيشه بأنّه من الأفضل لـ "روما" أن تنتقم لموت "بيرتيناكس" الذي كان قد قُتل من جنود القيصر، فقام تحت هذه الحجة ودون أن يُظهر رغبته بالسلطة... بتحريك جيشه لمهاجمة "روما"، وأصبح في "إيطاليا" قبل أن يُعلن عن قدمه، وبوصوله إلى "روما" انتُخب إمبراطوراً من قبل مجلس الشيوخ بدافع الخوف... ثم قُتل "جوليان".

بعد هذه البداية لم يبقَ أمامه إلّا صعوبتان عليه تخطيها ليصل إلى سيادة كل الدولة: الصعوبة الأولى في "آسيا" حيث "نيجر" قائد الجيوش الآسيويّة، الذي كان قد نودي به إمبراطوراً والصعوبة الثانية في "يونان" حيث كان "ألين" الذي كان يصبوا أيضاً إلى السلطة.

وبما أنّه قد استشفَّ خطورة الكشف عن نفسه كعدو للاثنتين... فقد قرر أن يُحارب "نيجر" ويخدع "ألين"... فكتب لهذا الأخير بأنّه قد انتُخب إمبراطوراً من مجلس الشيوخ، وأنّه يريد تقاسم هذه المسؤولية معه... فبعث له لقب "قيصر" وضّمّه كشريك له بقرار من مجلس الشيوخ. وصدّق "ألين" بدوره كل هذه الأمور وقبلها بشكل جدّي.

وبعد أن انتصر (أي سيفير) وقُتل "نيجر" وهُدأت الأوضاع في الشرق، تحوّل "سيفير" عن الأوضاع الشرقيّة إلى "روما"، واشتكى لمجلس الشيوخ بأن "ألين" يسعى إلى قتله غدراً دون الاعتراف بأفضاله عليه ولذلك فهو مضطّرّ لمعاقبته على نكرانه للجميل، فذهب لملاقاته في "فرنسا" وأخذ منه الدولة والحياة معاً.

من ينظرُ إلى تصرفات "سيفير" بدقّة، يجده أسداً شرساً جداً وثعلباً مُحْتالاً للغاية.. ومع ذلك فهو مخشّي ومحترّم من كل شخص وليس مكروهاً أبداً من جيوشه. وهكذا ومن خلال كل هذا، لن يُدهش المرء من أن "سيفير" الرجل الجديد في السلطة قد استطاع الحصول والاحتفاظ بهذا القدر من

(١) "سيبتيم سيفير" (١٤٦ - ٢١١): أعلن إمبراطوراً من قِبل جيوشه.

السلطة لأن سُمعته الكبيرة جداً تُدافع عنه دائماً وتحفظه من هذا الحقد الذي يُمكن أن يشعر به الشعب بسبب النهب والسرقات.

أمّا ابنه "أنتونين"^(١) فقد كان أيضاً رجلاً بميّزات ممتازة جداً ولهذا فقد كان موضع إعجاب الشعب ومقبولاً من الجنود...

لقد كان "أنتونين" رجل جيش^(٢) يحتمل كل أنواع العناء ويحتقر كل ما هو منمّق ومرفّه.. وكل أنواع النعم الأخرى... وهذا ما جعله محبوباً من كل الجيوش، إلا أنّ بسالته وقسوته كانت كبيرتان جداً وخارقتان لدرجة أنّه بعد عدد لا نهائي من القتل المميزين.. قتل قسماً كبيراً من شعب "روما" وكل شعب الإسكندرية. وهكذا أصبح مكروهاً جداً من كل العالم وبدأ يخشاه الجميع حتّى أولئك الذين يحيطون به... مما أدّى إلى قتله من قبل قائد المئة (قائد سرّيّة عند الرومان) في وسط جيوشه.

في الواقع إن مثل هذه الميئات تكون محتومة على الأمراء وخاصة إن كانت صادرة عن قرار لعقل متصلّب.. لأن من لا يحسب لموته يمكن أن يسبب هذا الموت له الإهانة. لكن على الأمير أن يخاف ذلك أقل بكثير مما يخافه غيره لأن هذه الميئات نادرة. إذاً ليس عليه إلا أن يتجنّب إلحاق الضرر بأحد من أولئك الذين يخدمونه والذين حوله وفي خدمة إمارته. كما فعل "أنتونين" حيث قتل شقيق قائد أحد السريّات وبشكل مهين، وقد كان يهدده كل يوم وبقي مع ذلك يستخدمه كحرس شخصي له.. وهذا هو جزء التهور الذي قاده إلى الهلاك، كما حدث معه، حيث قتله قائد تلك السريّة.

لننتقل الآن للحديث عن "كومود"^(٣)... لقد كانت لديه سهولة كبيرة في امتلاك السلطة، لأنّه ابن "مارك أويل" وهذا حقّه الموروث، وكان يكفي بالنسبة له أن يتبع أثر والده ليكون راضياً كما كان شعبه وجيشه، لكن فكره القاسي والحيواني قاده إلى استخدام جشعه ضدّ الشعب وإلى تنمية علاقته بالجيش وجعله مُطلق الحرّيّة... هذا من جهة.. أمّا من جهة أخرى فقد استخفّ بمركزه فكان ينزل غالباً إلى حلبات المصارعة مع

(١) - "أنتونين كاراكلا" (١٨٦ - ٢١٧): قتل أخاه وأقام سلطته على أساس الجيش والعنف، ثم اغتاله "ماكرين".

(٢) - "رجل جيش" أي "رجل حرب" أي شخص خبير وجنّدي جيّد وموهوب بأنظمة القتال والتنظيمات العسكريّة.

(٣) - "كومود" (١٦١ - ١٩٢) ابن "مارك أويل"، إمبراطور في عام (١٨٠) مات مخنوقاً من قِبَلِ مصارع تأمر ضده مع عدد من المواطنين المحكومين بالموت.

المصارعين(الغلاذ يترز) كما قام بأشياء أخرى دنيئة جداً وغير ملائمة لعظمته الإمبراطورية، لذلك أصبح مُحترقاً من جهة ومكروهاً من جهة أخرى وبالنتيجة تأمروا ضده وقتلوه.

لم يبق لنا سوى أن نتحدث عن صفات "فاكسيميني"^(٢) الذي كان شرساً جداً، وكانت الجيوش قد سأمت من رخاوة ولين "ألكسندر" التي ناقشناها سابقاً. وما إن مات "ألكسندر" حتّى سارعت الجيوش بانتخاب "ماكسيمين" وتسليمه السلطة.. لكنه لم يبق فيها زمناً طويلاً لأن شيتين جعلاه مكروهاً ومُحتقراً: الأول أنّه من أصل دنيء جداً.. فقد كان راعياً للخراف في "تيراس" وكان ذلك أمراً معروفاً جداً.. والأمر الآخر أنّه آخر في بداية حكمه الذهاب إلى "روما" والدُخول في مُلكيّة العرش الإمبراطوري فأعطى بذلك فكرة عن نفسه بأنّه قاس جداً. وقد مارسَ في "روما" من خلال ولاته قساوات مُتعددة جداً... وهكذا تمرد الجميع ضده بدافع الاحتقار لدناءة أصله وبدافع الكره له والخوف من بسالته. وبدأ التمرد من "إفريقيا"، ثم تأمر مجلس الشيوخ وكل الشعب في "روما" وفي "إيطاليا" ضده. إضافة إلى جيشه الخاص الذي تعب وملّ من قسوته خاصة أثناء حصاره "أكيلي" حيث كان يجد صعوبة في احتلالها. كما كان يرعبه قليلاً بنظرته إليه كعدو له وليس كجيش خاص ومُدافع.. لذلك قرر هذا الجيش قتله وفعلاً كان ذلك.

بالنسبة لـ "هيليو جبال" فلا أريد أن أتحدّث عنه ولا عن "ماكرين" ولا "جوليان"^(١) الذين دُمروا مباشرة لأنهم مُحقرين كلياً... إلّا أنني سأختم بهم هذا الفصل.

لقد قلتُ أن أمراء عصرنا هذا لا تلك الصعوبة الخارقة في إرضاء الجنود في حكوماتهم لأنّه بالرغم من ضرورة وجود بعض الاعتبارات اتجاههم، إلّا أنّ ذلك ينحلّ سريعاً. ولا يجمع أحداً من هؤلاء الأمراء جيوشه التي أنشأت في الحكومات والإدارات.. داخل المقاطعات كما كانت حال الجيوش في الإمبراطوريّة الرومانيّة.. لذلك، إن كان آنذاك من الضروري إرضاء الجنود أكثر من الشعب، فإنّه الآن بالعكس... أي يجب على

(٢) - "فاكسيمين" (١٧٣ - ٢٣٨) : نودي به إمبراطوراً من قِبَل جنوده الذين قتلوا (ألكسندر)، لم يعيش في "روما"، حارب "الألمان" ومات مقتولاً أيضاً من قِبَل جنوده.

(١) - "ماكرين" استمر إمبراطوراً لمدّة سنة، "هيليو جبال" : سنوات، "جوليان بضعة أشهر فقط.

الأمراء، ما عدا "الترك" والسلطان^(٢) أن يسعوا لإرضاء الشعب، لأن سلطة وقوة الشعب أكبر من سلطة الجنود وقوتهم. وقد استثنيت "الأتراك" لأنه دائماً عندهم اثنا عشر ألف جندي مشاة وحوالي خمسة عشر ألف فارس يُحشدون حول الأمير لضمان أمن مملكته وقوتها.. لذلك يتوجب على الأمير هنا أن يحافظ على صداقة هؤلاء قبل كل شيء. وهكذا نجد أن مملكة السلطان تقع بشكل كامل بين يدي الجنود.. ومن الأفضل له أن يسعى لكسب ودّهم دون أخذ الشعب بالحسبان.

إنّ دولة السلطان هذه مُختلفة عن كل الإمارات الأخرى لأنها مُشابهة للزعامة الدينية المسيحية التي لا يُمكن تسميتها لا إمارة موروثة ولا إمارة جديدة وفيها لا يرث الأبناء الحكم ولا يستمرون كسادة أشراف من بعد آبائهم. بل يُنتخب لهذا المركز واحد ممن يكونون حول الأمير السابق وهذا نظام قديم لذلك لا يمكن دعوته إمارة جديدة ولا نجد فيه أيّاً من الصعوبات التي نجدها في الإمارة الجديدة. لأنّه إن كان الأمير جديداً جداً، فإنّ ترتيبات وأنظمة هذه الدولة تكون قديمة بالية ومنظمة لاستقباله كشریف موروث (ولي عهد).

لنعود إلى موضوعنا... لقد قلت بأنّه أيّاً كان مَنْ سيَتأمّل كل ما سبق، سيجد أنّ سبب انهيار الأباطرة الأكفي الذكر هو إمّا الكره أو الاحتقار. وسيعرف أيضاً لماذا تصرف البعض منهم بطريقة، بينما كان الآخرون يتصرفون بشكلٍ مُخالف... ومهما تكن الطريقة التي سلكوها، فقد وصل البعض منهم إلى نهاية سعيدة.. بينما لم يلقى الآخرون إلاّ النهاية التعيسة.

"بيرتيناكس" و"ألكسندر" أمراء جُدد لذلك من غير النافع لهم.. لا بل من المضر أن يقلّدوا "مارك" الذي كان في الإمارة بحق الوراثة.. والوضع مُشابه بالنسبة لـ "كاراكلا" و"كومود" و"ماكسيمين" فإنّ تقليد "سيفير" أمر مؤذي لهم.. فليس لديهم الفضيلة الكافية لاقتفاء أثره.

بالنتيجة.. الأمير الجديد في الإمارة الجديدة لا يستطيع تقليد صفات "مارك".. وليس من الضروري إطلاقاً له إتباع تصرفات "سيفير"، لكن عليه أن يأخذ من "سيفير" الأجزاء الضرورية لتأسيس دولته، ومن "مارك

(٢) - "سليم الأول"، الترك والسلطان، وملك مصر المُنتخب من المماليك وفرسان الميليشيات المصرية القديمة.

تلك المناسبة والتي تُعطي المجد والعظمى للحفاظ عليها بعد أن يكون قد
رسّخ بنيانها ووطّدها.

هل الحصون والأشياء الأخرى التي يقوم بها الأمراء يومياً نافعة أم ضارة ؟

لكي يحافظوا على الدولة في أمان واستقرار قام بعض الأمراء بتجريد رعاياهم من السلاح، بينما قام آخرون بتقسيم المدن الخاضعة لهم.. وغيرهم قاموا بتغذية الأحقاد ضدهم.. وآخرون سعوا لكسب المشتبه بهم منذ بداية ولايتهم... فيما قام البعض بتشديد الحصون وجاء غيرهم فهدمها وأفناها.

إلا أنه لا يمكننا إعطاء حكم محدد فيما يخص كل هذه الأشياء، إذا لم نتفحص التفاصيل التي كانت في هذه الدول حيث يجب أن تؤخذ القرارات المشابهة.

في هذا الفصل سأحدث بهذه الطريقة الموسعة بقدر ما تسمح به هذه المادة نفسها: إن الأمير الجديد لا يجرّد رعيته من سلاحهم، بل على العكس يسلّحهم دائماً إذا كانوا عُزّل لأنه بهذه الطريقة يكسب السلاح إلى صفّه ويصبح في خدمته.. وهكذا يصبح المشتبه بهم أوفياء، والأوفياء يحافظون على وفائهم، ويصبح لديه أنصار من الرعية. لأنه لا يمكن تسليح كل الشعب.. فإن الأمير سيكون بأمان أكثر عندما يحسن لمن يسلّحهم، وهذا التمييز في طريقة المعاملة تجعل أولئك المعترفين بفضلك أكثر خضوعاً.. بينما سيعذرك الآخرون، معتبرين أنه من الضروري أن ينال من يتعرض للمخاطر أكثر.. ويخضع للمرغبات أكثر من غيره... تكريماً زائداً عن غيره.

لكن عندما ينزع الأمير السلاح من رعيته... يبدأ بإهانتهم وإيذائهم... ويظهر عدم ثقة بهم... إما استخفافاً وتحقيراً، أو تخويفاً... وسواء كانت الأولى أو الأخرى فإنهما سيولدان اتجاهه الكره والبغضاء. وبما أنك، أيها الأمير، لا تستطيع أن تبقى أعزلاً... فإنك لن تجد أمامك غير ميليشيات المرتزقة التي تحدثنا عنها وعن ميزات سابقاً... وحتى إن كانت هذه الميليشيات جيدة فإنها لن تستطيع حمايتك من عدو قادر قوي.. ومن رعية مُشتبه بهم. لذلك... على الأمير الجديد في الولاية الجديدة أن ينظّم جيشاً، والتاريخ مليء بأمثلة تؤكّد صحة وفائدة ذلك.

أما إن اكتسب الأمير دولةً جديدةً وضمَّها كعضو في دولته القديمة... فيجب عليه في هذه الحالة أن ينزع السلاح من هذه الدولة.. باستثناء أولئك الذين ناصروه وأعانوه في احتلالها. ولكن عليه أن يجعل هؤلاء خاصةً ضعفاءً ومختثين مع الزمن وحسب الظروف. كما يجب عليه تنظيم هذه الدولة بحيث يكون جيش الدولة كلها هو فقط الجيش المكوّن من الجنود الخاصين الذين كانوا يعيشون بجانبه في الدولة السابقة.

لقد كان أسلافنا الحكماء يقولون بأنه عليك أن تحصل على "بيستول" بالأحزاب وعلى "بيز" بالحصون... لذلك كانوا يُغذّون الخلافات في بعض المدن الخاضعة لهم... فهم بذلك يمتلكون هذه المدن بشكل أسهل... وكان هذا أمر جيد في الزمن الذي كانت فيه "إيطاليا" متوازنة نوعاً ما. لكنني لا أعتقد أنّه بإمكاننا اليوم أن نجعل ذلك مبدأً فالتقسيم برأيي لا يُعطي نتائج جيدة. على العكس فإن المدن المنقسمة تسقط فوراً عندما يدنو العدو منها... لأن الفئة الأضعف فيها تنضمّ دائماً للقوة الخارجيّة... وبذلك تُصبح الفئة الباقية غير قادرة على التماسك والمحافظة على نفسها.

"أهل البندقية" التزموا^(١) بالأسباب الأنفة الذكر، كما أعتقد، لذلك كانوا يُغذّون الفئات المتناحرة والمتنافسة "جيلف وجيبولين" في المدن الخاضعة لهم، ومع أنّهم لم يتركوهم في نزاع إلى حد القتال فيما بعد، إلّا أنّهم غدّوا بينهم هذه الأحقاد ليبقوا مُنشغلين بخلافاتهم ولا يتحدوا أبداً ضدهم، وهذا ما لم يلائمهم أبداً فيما بعد، كما رأينا، لأنّ بائنهزامهم (أي أهل البندقية) أمام "فايلا"، تجرّأ عليهم قسم من هذه الفئات المتناحرة واستولى على الدولة. وبهذه الطريقة كُشف عن ضعف الأمير، لأنّه في الإمارات القويّة لا يُسمح بمثل هذه التقسيمات... لأنّه لا يمكن الاستفادة منها إلّا في وقت السلم... فمن خلالها يمكن السيطرة على الاتباع بسهولة أكبر... لكن عندما تأتي الحرب يُظهر مثل هذا النظام بطلانه وعدم صلاحيته.

دون شك، إنّ الأمراء يصبحون عظماء عندما ينتصرون على الصعوبات والمعوقات التي تُقام في وجههم، لذلك تجد أنّه عندما يريدُ القدر أن يجعل من الأمير الجديداً رجلاً عظيماً، وهو بحاجة لاكتساب السمعة أكثر من الأمير بالوراثة، فإنّه يضع في طريقه الأعداء ويجعلهم يقومون

(١) - حزبان يجسدان النزاع والمنافسة بين الإمبراطورية والباباوية على الأرض الإيطالية بين القرن الثالث عشر والرابع عشر.

بمؤامرات ضده ليكون ذلك سبباً لقتالهم والنصر عليهم. وهكذا يندحر العدو وترتفع مكانة الأمير^(١) ومن هنا... فإن الكثيرين يرون أنه يجب على الأمير الحكيم... أن يتظاهر بعداوة ماء، عندما تتاح له الفرصة المناسبة، ليتمكن فيما بعد من دحرها فتزداد عظمتة بذلك.

الأمراء.. وخاصة الجدد منهم، يجدون إخلاصاً ومنفعةً عند مَنْ كانوا يُشتبهون بهم في بداية دولتهم، أكثر مما يجدون عند أولئك الذين أظهروا الثقة والوفاء في البداية فمثلاً "بوندولفو بيتروكسي" أمير "سيان" استطاع أن يُدير دولته ويحافظ عليها مع المشتبه بهم أكثر من غيرهم. لكن لا يمكننا الحديث عن هذا الأمير بشكلٍ واسع... لأن هذه الناحية تختلف حسب فاعلها... لذلك سأكتفي بالقول أنّ هؤلاء الرجال الذين كانوا أعداء في البداية... والذين هم الآن على هذا الشكل من الثقة، بحاجة إلى سند يحافظون من خلاله على أنفسهم، ويُمكن للأمير دائماً أن يكسبهم إلى صفه بسهولة فائقة... وهم بدورهم سيكونوا مُجبرين على خدمته بإخلاص، لأنهم يعلمون أنه يتوجب عليهم محو الفكرة السيئة التي كانت لدى الأمير عنهم في البداية... ويحققون ذلك من خلال أعمالهم.

وهكذا، فإنّ الأمير يستفيد منهم أكثر مما يستفيد من أولئك الذين، بسبب صدقهم الزائد في خدمته، يهملون هذه الأمور.

ولأنّ الموضوع يستوجب، لا أودّ التخلّي عن توجيه الأمراء الذين وصلوا إلى دولةٍ جديدة بواسطة اختيار الشعب ورغبته بأنّ عليهم أن يأخذوا بعين الاعتبار السبب الذي دفع الذين فضلّوهم إلى هذا التفضيل. فإن لم تكن رغبة وميل طبيعي نحوهم... بل فقط لأنهم غير راضين عن دولتهم... فإنّ هؤلاء الأمراء سيواجهون صعوبات جمّة ليكسبوهم كأصدقاء لأنّ إرضاء هذا الشعب سيكون مستحيلاً.

وبهذه الأمثلة المأخوذة من أمور قديمة وحديثة وبمناقشتنا الجيدة لأسباب ذلك... سنرى أنّ كسب هؤلاء الرجال الذين كانوا راضين سابقاً عن الدولة... أسهل بكثير من كسب أولئك الذين أصبحوا أصدقاء بسبب عدم رضاهم سابقاً عن دولتهم وبالتالي فقد سهّلوا على هذا الأمير احتلال دولتهم.

(١) - العلاقة بين الفرصة والفضيلة، مُبيّنة في الفصل السادس، إنّ الأوضاع الأكثر ملائمة لتصرّف الأمير الجديد تتوفّر أحياناً في زمن هجدهم

ومن عادة الأمراء أن ينشئوا الحصون.. لتكون الرادع والعنان لمن ينوي التآمر عليهم... ولتكون الملجأ عند أي هجوم مفاجئ. وهكذا يحافظون على دولهم في أمان أكثر. وأنا بدوري أنثي على هذه الطريقة... لأنها استُخدمت منذ زمن طويل، ومع ذلك فإننا نرى السيد "نيكولا فيتولي" من عصرنا، قد هدم حصنين في مدينة "كاسيتو" لكي يكسب هذه الدولة، "جيودو أوبالدو" دوق "أوربينو" عاد إلى الهيمنة بعد أن كان قد طرده "سيزار بورجيا"، فهدم كل حصون مقاطعته رأساً على عقب... معتقداً أنه سيصبح فقداً أكثر صعوبة إذا هدمها. وأيضاً عندما عاد "البونتيڤوليو" إلى "بولونيا" قاموا بأعمال مشابهة فيها^(١).

إذاً إن نفع الحصون أو ضررها يتحدد حسب العصر. وإن كانت تنفع من ناحية فإنها تؤذي من ناحية أخرى. فمثلاً على الأمير الذي يخاف من شعبه أكثر مما يخاف الغرباء... أن يُقيم الحصون. بينما يجب على ذلك الذي يخشى الغرباء أكثر... أن يتجاوزها.

في بيت "سفورزا" في قصر "ميلان" الذي شيّده "فرانيسكو سفورزا" قامت وستقوم حروب أكثر من أي بليلة في هذه الدولة. ومن هنا نرى أن أفضل حصن للأمير هو ألا يكون مكروهاً من شعبه... لأنه إن كان الشعب يكرهه... فإن الحصون لن تُنقذه... لأن الشعب سيتسلح ضده وسيجد الدعم من الغرباء.

في عصرنا.. لا يُستفاد من الحصون لدى الأمراء... ما عدا الكونتيسا "فورلي" التي، عندما قُتل زوجها الكونت "إيرونيمو" احتمت من الهجوم الشعبي عليها بواسطة الحصن... وانتظرت الإغاثة من "ميلان" واستطاعت استعادة الدولة، وفي ذلك الوقت لم يكن الغرباء قادرين على مساعدة الشعب، لكن فيما بعد لم تخدمها الحصون أبداً عندما هاجمها "سيزار بورجيا"... وارتبط الشعب "الذي يكن العداوة لها" بالغرباء. بالنتيجة كان من الأكثر أماناً لها بدايةً لو أنها لم تكن مكروهة من الشعب على أن يكون لديها الحصون.

(١) - "جوفانين بونتيڤوليو" طُرد خارج "بولونيا" من قِبَل البابا "يوليوس الثاني". في عام ١٥٠٦ ابنه "هانيبال" هدم الحصن المبني من قِبَل البابا عندما عاد إلى المدينة عام ١٥١١ - ١٥١٢.

بالنظر إلى كل هذه الأشياء.. أرشح قيام الحصون وعدم قيامها. وسألوم
أيّاً كان إن بنى حصوناً دون أن يهتم بحقد الشعب عليه.

ما يجب على الأمير فعله لكي يحصل على التقدير.

لا شيء يُعطى الأمير احتراماً وتقديراً كما تعطيه المشاريع العظيمة، وأن يكون هو ذاته أحد الأمثلة النادرة المشهود بها^(١). ولدينا مثال على ذلك من عصرنا هذا "فيرديناند دي اراغون" ملك "إسبانيا" الحالي... الذي يمكن تسميته على وجه التقريب بالأمير الجديد. لأنه بعد أن كان ملكاً ضعيفاً أصبح ملك المسيحيين الأول وذلك من خلال الشهرة والمجد.. فإذا تأملنا تصرفاته سنجد أنها كلها عظيمة جداً، بل إن البعض منها خارق:

في بداية حكمه هاجم هذا الملك "غرناطة"، وكانت هذه المبادرة أساس دولته التي قادها قبل كل شيء إلى الرفاهية والراحة، دون أن يخاف من أي عائق... واستطاع بها أن يسلب عقول بارونات "كاستيليا" الذين لم يفكروا بالتمرد من جديد حيث قام بإشغالهم بهذه الحرب. وهكذا استطاع أن يكسب سمعة وسلطة عليهم دون أن يشعروا بها. كما استطاع تمويل الجيوش بأموال الكنيسة والشعب... وبناء أساس ميليشيته التي شرفته ورفعت منزلته فيما بعد... وكل هذا كان بفضل هذه الحرب الطويلة.

إضافة إلى ذلك.. فقد ثابر على القسوة الورعة، لكي يتمكن من المباشرة بمشاريع أكبر، فاستخدم في ذلك الدين دائماً. كما طرد من مملكته "الماران" و"السبولين"^(٢) وهاجم "إفريقيا".. ودائماً تحت نفس الغطاء^(٣)... لقد قاد المشاريع في "إيطاليا" وقاتل آخر المطاف "فرنسا".. وهكذا كان دائماً يعمل وينظم الأمور العظيمة التي كانت دائماً تشد عقول رعيته المعلقين به... ومعجبيه التواقين إلى النتائج الصادرة عنها. وكانت أفعاله تتولد بعضها من بعض... فلم يكن هناك مجال بين الواحدة والأخرى ليتمكن الرجال من التحالف ضده بهدوء.

(١) - يجب على مواطني الجمهورية والأمراء الذين يريدون أن يكسبوا شهرة عظيمة.. أن يعطوا عن أنفسهم أمثلة نادرة.. أي أن يجعلوا من أنفسهم نماذج يُحتذى بها.

(٢) - تهجير اليهود عام ١٤٩٢ والحجر على ممتلكاتهم من قبل الملك في "أراغون".

(٣) - النفاق والكذب.

بالنسبة للحكم في الداخل.. من المفيد أيضاً للأمير أن يجعل من نفسه نموذجاً فريداً، كالأمثلة التي تُروى عن السيّد "برناردو" في ميلان^(٣) عندما يكون هناك فرصة للتحدّث عن أحداً قام بعمل شيء خارق في الحياة المدنيّة سواءً بالخير أو بالشر، فقد اعتمد طريقةً تُكافؤه أو تعاقبه حسب العمل وهذا جدير بالذكر.

ويجب على الأمير خاصّةً أن يجتهد ليعطي عن نفسه في كل تصرّف من تصرّفاتِه، سمعة الرجل العظيم، والناطقة المميّز... وهناك شيء آخر يجعل الأمير محترماً وجديراً بالتقدير... وهو أن يكون صديقاً حقيقياً أو عدواً حقيقياً... أي عندما يكشف عن نفسه دون حذر أو خوف من أحد.. بأنّه مع هذا.. وضد ذلك. إن هذا الجزء يبقى مفيداً أكثر من البقاء حيادياً لأنّه إذا اشتبك اثنان من جيرانك وكانا أصحاب سلّطة ونفوذ واسعين... فعليك أنذاك أن تخشى المنتصر فإن الصراع القائم بينهما إمّا أن يكون من ذلك النوع الذي ينتصر فيه أحدهما أو لا يكون، وفي الحالتين من الأفضل لك أن تكشف عن ذاتك وتقوم بحرب حقيقيّة، لأنّه في الحالة الأولى إن لم تكشف عن نفسك وتحدد موقفك... ستبقى دائماً فريسةً للمنتصر... وليس لديك سببٌ أو أي شيء تدافع به عن نفسك... ولن يقبل أحد أن يستقبلك... فالمنتصر لا يرغب بصديق مُشْتَبِه به ولم يُساعدَه في وقت محتته... والمهزوم لن ينظر إليك... فأنت لم تكن إلى جانبه وجانب جيشه ولم تشاركهم المصير.

كان "أنيتوشوس" قد استدعي إلى "اليونان" من قِبَل "الايوليّان" لكي يطرد منها "الرومان". فأرسل السفراء إلى أهل أثينا الذين كانوا أصدقاءً "للرومان" - لكي يضمن بقائهم على الحياد. ومن الناحية الأخرى كان "الرومان" يحرّضوهم لأخذ السلاح إلى جانبهم... وقد تم تداول هذه المسألة في مجلس شيوخ "أثينا" وحينها حثّهم مبعوث "أنيتوشوس" على البقاء على الحياد... وهذا مارّد عليه المبعوث الروماني: «لم يعد هناك ما هو غير صالح لأعمالكم إلّا ما تقولونه بأنكم لن تأخذوا جانباً في الحرب، أنكم ستكونون مكافأة للظافر دون منّة و امتياز».

ما يحصل في الواقع... أنّ مَنْ ليس صديقك سيَجبرك على البقاء مُحياداً... بينما سيَجرك صديقك لتبقى إلى جواره في الحرب... وهذا ما

(٣) - "برناردو فيسكوني" (١٣٢٣ - ١٣٨٥) حكم على الجزء الشرقي من الأراضي الميلانيّة (أراضي ميلان).

ستكتشفه فيما بعد بنفسك... والأمراء المتمرّدون يتبعون في أغلب الأوقات الطريق المحايد لكي يتجنّبوا المخاطر الحاليّة... لكنهم في حقيقة الأمر لا يكونون قد اتجهوا إلا نحو دمارهم... لكن إذا أعلن الأمير بكل جسارة... أنّه إلى جانب أحد الأطراف... فإنّه سيرتبط به عندما ينتصر... وبقدر ما يكون هذا الفريق قوياً وقادراً... بقدر ما يستمر الأمير في ودّه ورحمته... وهذا سيؤدّ بينهما الحبّ والعرفان بالجميل... فالرجال ليسوا على هذا القدر من السوء وعدم الشرف بحيث يضطهدون الأمير في هذه الظروف... فيعطون بذلك عن أنفسهم مثلاً عن نكرانجميل والعقوق^(١)، ثم إنّ النصر لا يُعتبر كاملاً لدرجة يسمح فيها المنتصر لنفسه بأن يدوس العدالة.

لكن إذا خسر الفريق الذي ارتبط به الأمير... فإنّ هذا الفريق سيرحب به... وسيساعده بقدر ما يستطيع ليصبح رفيقه على القدر الذي يُمكن أن يرفع من شأنهما يوماً ما.

في الحالة الثانية أي عندما يكون الصراع من ذلك النوع الذي لا يخشى الأمير معه من ينتصر... فإن الارتباط بأحد الطرفين يعدّ عملاً حكيماً تماماً... لأنّك أيها الأمير، ستساهم من خلال هذا في دمار أحدهما بمساعدتك لمن يجب إنقاذه... وفي حالة النصر سيبقى هذا الفريق تحت جانحك فهو يعلم بأنّه من المستحيل أن ينتصر بدونك.

وهنا أقول أنّه عليك أن تبتعد، أيها الأمير، بكل ما تستطيع عن إقامة صداقة مع من هو أكثر نفوذاً وقوّة منك لكي تُلحق الضرر بالآخرين... ألهمّ إلا إذا أجبرتك الظروف على ذلك. لأنّه، كما قلنا سابقاً، في حالة النصر ستبقى أسيره وعليك أن تتجنّب قدر المستطاع أن تكون تحت رحمة الآخرين، مثلاً "أهل البندقية" تحالفوا مع "فرنسا" ضد دوق "ميلان" وقد كان بإمكانهم تجنّب هذا التحالف الذي ساقهم إلى الدمار.

لكن عندما لا تستطيع تجنّب ذلك (كما حصل مع أهل "فلورنسا" عندما ذهب البابا و"الإسبانيون" مع الجيوش إلى المحاربة "لومبارديا") يجب عليك أنذاك أن تقبل وترتبط للأسباب المذكورة أعلاه. وليس هناك دولة لا تعتقد أبداً أنها قادرة دائماً على أخذ الجوانب الصحيحة، بل على العكس فإنّه يجب وضع كل الجوانب تحت الشك، لأننا نجد هنا في نظام الأمور... أننا

(١) - هنا الملاحظة غير متوقّعة من "ميكافيللي" الذي أصرّ في الفصل "١٧" على ضرورة أن ينمي الأمير الخوف من العقاب عند رعاياه ولا يعتمد على الحب.

لا نسعى إطلاقاً لتجنب عقبة إلا وتعترضنا عقبة غيرها... إذاً الحكمة تقوم على التعرّف على صفات العقبات واعتبار الأقل سوءاً جيداً.

أيها الأمير... عليك أن تظهر الحب للفضائل والميّزات، من خلال استقبال الرجال الفاضليين بشكل حسن والتشرّف بأولئك الذين يبرعون في فن أو مهنة... ثم عليك أن تُقنع مواطنيك بأنّه يمكنهم ممارسة مهنتهم في التجارة والزراعة ومهن الرجال الأخرى بكل هدوء... وبأنّك لا تخشى تزيين ممتلكاتك خوفاً من أن تُنتزع منك... كما لا تخشى الانفتاح في التجارة خوفاً من الضرائب. لكن عليك أن تقدّم الثمن لمن يريد أن يعمل هذه الأشياء... ولمن يفكر في تنمية مدينته أو دولته بأي طريقة كانت. وبالإضافة إلى ذلك... عليك أن تُشغل الشعب في الأوقات المناسبة من السنة بالاحتفالات والعروض. وبما أنّ كل مدينة مقسومة إلى فنون وقبائل (أو أحياء) فعليك أن تجتمع معها في بعض الأحيان لتعطي بذلك مثلاً عن ذاتك في الإنسانية والعظمى.

المهم مع كل هذا أن تحتفظ دائماً بمركزك الذي ينبغي ألا يُعاب في أيّة مناسبة أو فرصة.